

الدرس الثاني عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب الكبائر :

باب ذكر الريب

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ [الحجرات: ١٥] ، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٤-٥] ، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُتَشَكِّينَ ﴾ [الحجرات: ٣٢] .

قال رحمه الله تعالى : «باب ذكر الريب» ؛ الرِّيب آفة خطيرة جداً من آفات القلوب، وهو الشكُّ، ضدُّ اليقين. والله عزّ وجلّ لا يقبل في إيمان العبد إلا اليقين ، أمّا إذا كان شاكاً متردداً غير جازم غير مستيقن فإنّ ذلك لا يُقبل منه؛ لأنّ الإيمان يقين لا ريب فيه ولا شكّ ، فإذا وُجد الشكّ انتفى اليقين، وانتفى بانتفائه الإيمان، فمن كان شاكاً مُرتاباً لا إيمان له؛ لأنّ الإيمان هو اليقين الجازم الذي لا شكّ فيه ولا ريب.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ [الحجرات: ١٥] ؛ ومعنى قوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أي: أيقنوا ولم يشكوا، فمن لم يكن إيمانه كذلك لا إيمان له. قال: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أي لم يقم في قلوبهم ريبٌ أو شكّ، بل إيمانهم جازم لا تردّد فيه ولا ارتياب، وإذا كان في الإيمان ارتياب؛ فيه شكّ، فيه تردّد، فيه عدم جزم، فإنّه لا يُعدّ إيماناً بل يُعدّ كُفراً، ومن أنواع الكفر: كفر الشكّ ، كفر الرّيب؛ لأنّ من لم يكن جازماً وكان مُرتاباً ، يعني مثلاً: يُسأل عن اليوم الآخر، يقول: احتمال أن يكون هناك يوم آخر، احتمال ما يكون - مثلاً - ، أو يقول مثلاً: احتمال أنه يوجد ملائكة، وممكن ما يكون هناك ملائكة، أنا ما عندي جزم أنه يوجد ملائكة. إذا لم يكن عنده يقين فهذا كفر؛ لأنّ الإيمان الذي يقوم عليه دينُ الله سبحانه وتعالى يقينٌ كلّهُ، فإذا لم يوجد هذا اليقين لا يُعدّ مؤمناً، قد قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

الْخَاسِرِينَ ﴿٥٠﴾ [المائدة : ٥٠] ، ومن ذلك المرتاب، المرتاب في أصول الإيمان وقواعد الدين وثوابت الشريعة، مَنْ عنده رَيْبٌ في ذلك فَإِنَّ رَيْبَهُ يُخِيطُ عمله كُلَّهُ. فالإيمانُ يَقِينٌ لا رَيْبَ فيه .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ و«إِنَّمَا» أداة حصر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ ومعنى ﴿لَمْ يَرْتَابُوا﴾: أي أيقنوا ولم يشكوا. قد قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقي الله بهما عبدٌ غيرُ شاكٍّ فيهما إلاّ أدخله الله الجنة)) ؛ اشترط عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ اليقين، قال: ((غيرُ شاكٍّ فيهما أدخله الله الجنة)) ، بمعنى أنه إن وُجِدَ الشَّكُّ، أو وُجِدَ الرَّيْبُ لم يكن من أهل الجنة؛ لأنَّه ليس عنده إيمان، فالإيمانُ: اليقين.

قال رحمه الله تعالى: وقوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤-٥﴾ [البقرة: ٤-٥] ؛ الشاهد من هذه الآية الكريمة قوله : ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ واليقين: هو كمال العلم وانتفاء الرَّيْبِ، ولا يكونُ مؤمناً بالآخرة إلاّ مَنْ كان إيمانه بها عن يقين ، فإذا كان في إيمانه تردُّد أو ارتياب أو عدم جزمٍ أو نحو ذلك فهذا يُعَدُّ كُفْراً أكبرَ ناقل من المِلَّة؛ لأنَّ الإيمان هو اليقين، ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ، واليقين: هو كمال العلم وتماحه وانتفاء الرَّيْبِ والشَّكِّ ، فإذا وُجِدَ شكٌّ أو رَيْبٌ أو عدم جزم بهذه الأصول أو بشيءٍ منها فَإِنَّ ذلك يُعَدُّ كُفْراً.

كذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّهُ نَظُنُّ الْإِثْلَاقَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِينَ﴾ [الحاقة: ٣٢]؛ انظر إلى هذه الكلمات: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾، ﴿إِنَّهُ نَظُنُّ الْإِثْلَاقَ﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِينَ﴾ هذه كُلُّها تدلُّ على أَنَّ هؤلاء لا يَقِينُ عندهم. والإيمانُ بالسَّاعةِ لا يكونُ إيماناً إلاّ بانتفاء الرَّيْبِ، مثل ما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شكَّ في وقوعها، فإذا لم يكن الإيمان بهذا الوصف «إيمانٌ لا رَيْبَ فيه» فَإِنَّ صاحبه يكون كافرًا؛ لأنَّ الإيمان هو اليقين، الإيمان هو انتفاء الرَّيْبِ، فإذا وُجِدَ الرَّيْبُ لا يوجد الإيمان، لا يمكن أن يجتمع إيمانٌ ورَيْبٌ؛ لأنَّ الإيمان هو انتفاء الرَّيْبِ، فإذا وُجِدَ الرَّيْبُ انتفى الإيمان، وإذا وُجِدَ الإيمان الصحيح انتفى الرَّيْبُ، أمّا أن يجتمع إيمانٌ ورَيْبٌ! لا يجتمعان، فمَنْ كان عنده رَيْبٌ ليس بمؤمن. فهؤلاء الذين يقولون: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّهُ نَظُنُّ الْإِثْلَاقَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِينَ﴾ هؤلاء كفّار ليسوا بمؤمنين ، لماذا؟ لأنَّ ليس عندهم يقين، ليس عندهم إلاّ الرَّيْبُ والشَّكُّ، وهذا كفرٌ بالله سبحانه وتعالى.

والإيمان بالسَّاعة أصلٌ من أصول الإيمان وركنٌ من أركان الدِّين، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] ، فَمَنْ كَانَ مُرْتَابًا فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ لَيْسَ عِنْدَهُ يَقِينٌ فِيهِ أَوْ فِي أَيِّ أَصْلٍ مِنْ أَصُولِ الْإِيمَانِ يُعَدُّ كَافِرًا ، حتى لو كان يُصَلِّي أو يصوم أو يتصدق فَإِنَّ أَعْمَالَهُ كُلَّهَا لَا تَكُونُ مَقْبُولَةً؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ دِينُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ مَوْجُودًا عِنْدَهُ.

قال رحمه الله :

وكان معاذ رضي الله عنه يقول في مجلسه كل يوم قلّ ما يخطئه: «الله حَكَمٌ قِسْطٌ، هلك المرتابون» .

قال رحمه الله تعالى: «وَكَانَ مُعَاذُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي مَجْلِسِهِ كُلَّ يَوْمٍ قَلَّ مَا يَخْطِئُهُ» ؛ معنى «قَلَّ مَا يَخْطِئُهُ» أي: لا يفوته ، لا يكاد يجلس مجلسًا في يومٍ إلّا ويقول هذه الكلمة: «الله حَكَمٌ قِسْطٌ ، هلك المرتابون». وهذا الأثر عن معاذ رواه أبو داود في سننه بإسنادٍ صحيح إلى معاذ موقوفًا عليه رضي الله عنه، ولفظُ أبو داود قال: «كَانَ مُعَاذٌ لَا يَجْلِسُ مَجْلِسَ ذَكَرٍ حِينَ يَجْلِسُ إِلَّا قَالَ : اللهُ حَكَمٌ قِسْطٌ هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ» ؛ "لا يجلس مجلس ذكر" المراد بمجلس الذِّكر: مجلس الوعظ والتعليم والتذكير بالله سبحانه وتعالى ، فيكون من جملة وعظه وتذكيره رضي الله عنه وأرضاه هذه الكلمة: «الله حَكَمٌ قِسْطٌ هلك المرتابون» .

«حَكَمٌ» أي: حاكم ، له الحُكْمُ جَلَّ فِي عِلَاهُ ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠] . و«الحُكْمُ» اسم من أسمائه تبارك وتعالى، والله عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْحُكْمُ الْكُونِيُّ الْقَدْرِيُّ، وله الحكم الشرعي الدِّيني، وله الحكم الجزائي، هذا كُلُّهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

■ **الحكم الكوني القدري:** كل ما حكم به كَوْنًا وَقَدَرًا وقع طبقًا لِمَا حكم به، وطبقًا لما قضاه سبحانه وتعالى، لا رادَّ لقضائه ولا مُعَقَّبَ لحكمه، ((ماضٍ فِي حُكْمِكَ)) أي: حكمك القضائي الكوني نافذ ، «ما شئتَ كان وإن لم أشأ»، ما حكم الله به وقضاه وقدره لا بدَّ أن يقع طبقًا لما قدره وقضاه سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْءًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

■ **وله الحكم الشرعي :** ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى : ٢١] ، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف : ٤٠] ، الحكم الشرعي لله عَزَّ وَجَلَّ ليس لأحدٍ أن يشرع، الشارع هو ربُّ العالمين، الحكم الشرعي لله ربِّ العالمين وحده سبحانه وتعالى.

■ والحكم الجزائي الذي هو الثواب والعقاب ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] أيضاً الحكم الجزائي لله سبحانه وتعالى رب العالمين لا شريك له، فهو عز وجلّ حكم. «قِسْطٌ» والقسط: العدل . وقوله «حَكْمٌ قِسْطٌ» أي حاكمٌ عادل ، والله سبحانه وتعالى عدلٌ لا يظلم جلّ في علاه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَالَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٢] ، ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] ، فالله عز وجلّ لا يظلم، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] .

قال: «هَلَكَ الْمُرتَابُونَ» وهذا موضع الشاهد من كلامه رضي الله عنه للترجمة «هلك المرتابون» ؛ أي أنّ الرّيب في الله أو في أسمائه أو في صفاته ، أو في اليوم الآخر، أو في الملائكة، أو في النّبيين، أو في القضاء والقدر، أو في الكتب المنزلة .. الرّيب في أصول الإيمان وقواعد الدّين كفرٌ مهلكٌ لصاحبه.

قال: «هلك المرتابون» ؛ ومعنى المرتابون: الشّاكّون الذين ليس عندهم إيمان، وإمّا عندهم شكٌّ ورّيب؛ فمن كان كذلك فقد هلك ، والهلاك هنا هلاك الكفر والعياذ بالله الناقل من الملة.

قال رحمه الله:

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنّ من اليقين أن لا تُرضي أحداً بسخط الله ، ولا تحمد أحداً على ما آتاك الله، ولا تلوم أحداً على ما لم يؤتك الله، وإن الله بعلمه وقسطه جعل الروح والفرح في اليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط، وإن رزق الله لا يحره حرص حريص ولا يرّده كراهية كاره».

قال رحمه الله تعالى : وعن ابن مسعود، وهذا الأثر رواه البيهقي في كتابه «شُعَبُ الإِيْمَان» قال: «إنّ من اليقين ألا تُرضي أحداً بسخط الله» ؛ إنّ من اليقين: أي إنّ من يقينك بالله وعده سبحانه وتعالى لعباده بالإنعام والحفظ والتّسديد والمعونة. إنّ من يقينك بالله وثقتك به وحسن اعتمادك عليه وتوكلّك عليه سبحانه وتعالى ألا تُرضي أحداً بسخط الله ؛ وهذا فيه أنّ المرء إذا كان يُرضي النَّاسَ ويستجلب عواطفهم ويستدّر ما عندهم بشيء يُسخطُ الله سبحانه وتعالى فهذا من أمارات ضعف يقينه بالله ؛ لأنّه قال هنا: «إنّ من اليقين ألا تُرضي أحداً بسخط الله» فمفهوم ذلك: أنّ من ضعف اليقين أن تُرضي أحداً بسخط الله ، فكلّ ما يتكلّم به الإنسان مع النَّاسِ يستدّر مثلاً به عواطفهم في أمور تُسخط الله ويعلم أنّها تُغضب الله، لكن يريد أن يستميل النَّاسَ هذا من ضعف يقينه بالله سبحانه وتعالى، ضعف ثقته بالله أنّ الرّزق منه وأنّ الفضل بيده سبحانه وتعالى جلّ في علاه،

وَأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢٠].

«وَلَا تَحْمَدُ أَحَدًا عَلَى مَا آتَاكَ اللَّهُ» ؛ لِأَنَّ الْفَضْلَ أَوَّلًا وَآخِرًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَهُوَ مُوَلِي النِّعْمَةِ وَمُسَدِّدُهَا ، وَالْمَنْعِ بِهَا وَالْمُتَفَضِّلِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] ، فَالنِّعْمَةُ نِعْمَةُ اللَّهِ وَالْفَضْلُ فَضْلُ اللَّهِ ، فَلَا تَحْمَدُ أَحَدًا عَلَى مَا آتَاكَ اللَّهُ ؛ لِأَنَّ الْفَضْلَ فَضْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَالْمَنْ مَنَّهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ.

«وَلَا تَلُومَ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ» ؛ وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ قُوَّةِ الْيَقِينِ عِنْدَمَا يَكُونُ فِي الْعَبْدِ ، لَا تَلُومَ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ ، وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا ظَلِمَ مَثَلًا لَا يُطَالَبُ بِحَقِّهِ ، بَلْ لَهُ أَنْ يُطَالَبَ بِحَقِّهِ ، وَلَهُ أَنْ يَبْذُلَ الْأَسْبَابَ الْمَشْرُوعَةَ بِتَحْصِيلِ حَقِّهِ ، لَكِنْ اعْتِمَادَهُ وَثِقَتَهُ وَتَوَكُّلَهُ وَالتَّجَاوُءَ فِي كُلِّ ذَلِكَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبِّ الْعَالَمِينَ.

«وَإِنَّ اللَّهَ بَعَلْمَهُ وَقِسْطُهُ» أَي: عَدْلُهُ الَّذِي لَا ظُلْمَ فِيهِ «جَعَلَ الرِّوْحَ وَالْفَرْحَ فِي الرِّضَى وَالْيَقِينِ» بِمَعْنَى: أَنَّ الرِّضَى بِاللَّهِ وَعَنِ اللَّهِ وَالْيَقِينِ بِهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ هُوَ الَّذِي يَجْلِبُ لِلْقَلْبِ الْفَرْحَ وَالرَّاحَةَ وَالسُّرُورَ وَالطُّمَأْنِينَةَ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ، فَالرِّضَا بِاللَّهِ وَعِنَهُ وَالْيَقِينُ بِهِ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَجْلِبُ لِلْقَلْبِ الرَّاحَةَ وَالْفَرْحَ وَاللَّذَّةَ وَالسَّعَادَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ.

«وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ» وَهَذَا مَوْضِعُ الشَّهَادَةِ «فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ» ؛ إِذَا وُجِدَ الشَّكُّ الَّذِي هُوَ عَدَمُ الْإِيمَانِ وَعَدَمُ الْجُزْمِ وَعَدَمُ الْيَقِينِ ، وَوُجِدَ السَّخَطُ الَّذِي هُوَ عَدَمُ الرِّضَى عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَنِ قَضَائِهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ ، فَإِذَا وُجِدَ هَذَانِ الشَّكُّ وَالسَّخَطُ وَجِدَ الْهَمُّ وَالْحُزْنَ ، كَمَا أَنَّ الْيَقِينَ وَالرِّضَا مَجْلِبَةٌ لِلْفَرْحِ وَالرَّوْحِ فَإِنَّ الشَّكَّ وَالسَّخَطَ مَجْلِبَةٌ لِلْهَمِّ وَالْحُزَنِ.

«وَإِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حَرَصٌ حَرِيصٌ وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةٌ كَارِهَةٌ» أَي أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا كَتَبَهُ لَكَ مِنْ رِزْقٍ حَاصِلٌ لَا رَادَّ لَهُ ، وَمَا لَمْ يَكْتُبَهُ لَكَ مِنْ رِزْقٍ غَيْرُ حَاصِلٍ ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢٠].

قال رحمه الله :

وقال عمر رضي الله عنه يوم الحديبية: «فَعَمِلْتُ لَذَلِكَ أَعْمَالًا».

هذه الكلمة تُؤثر عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قالها على إثر موقفه عند الصُّلح - صلح الحديبية- لما كان يراجع الرسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام في ذلك الصُّلح، ثم ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه وكان يراجع في ذلك الصُّلح ، فوجدَ عنده شيء من التَّردُّد فيما صالح عليه النَّبيَّ المشركين ، وكان يقول: «لماذا نعطي الدِّنيَّة في ديننا، أليس الحقُّ معنا؟» كان يريد أن يمضوا في القتال، ووقع في نفسه شيء من التَّردُّد في الصُّلح والموافقة على البنود التي كانت ، حتى قال للنَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم: «ألم تقلْ لنا أنَّنا سنعتَمِر؟» قال: بلى: قال له النَّبيُّ عليه الصَّلَاة والسَّلَام : ((أقلت لك في هذا العام؟!)) ، ولما ذهب إلى أبي بكر سأله السُّؤال نفسه، وأجاب أبو بكر بالجواب نفسه، قال: «ألم يقلْ لنا إنَّا سنعتَمِر؟» قال: بلى. قال: أقال لك: في هذا العام؟ قال: لا، فوجد عنده شيء من التَّردُّد، ثمَّ لما تبَيَّن له الأمر قال كلمته هذه رضي الله عنه «فَعَمِلْتُ لَدَلك أَعْمالاً» ؛ ماذا يقصد؟ فَعَمِلْتُ لَدَلك أَعْمالاً : أي أعمال صالحة يريد أن تكفِّر تلك الوقفة التي كانت منه. قال: «فَعَمِلْتُ لَدَلك أَعْمالاً» أي: من صدقات وصيام وعتق للرِّقاب وأشياء من هذا القبيل يريد أن تكون كِفارةً لما مضى من التَّوقُّف في الامتثال ابتداءً ، لأن حصل في ابتداء الأمر شيء من التَّوقُّف والمراجعة للنَّبيِّ عليه الصَّلَاة والسَّلَام والمراجعة لأبي بكر رضي الله عنه. وقوله: «فَعَمِلْتُ لَدَلك أَعْمالاً» جاء في بعض الروايات ما يوضِّح ذلك حيث قال: «ما زلتُ أَتصدَّقُ وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعتُ يومئذٍ؛ مخافةً كلامي الذي تكلمتُ به» رضي الله عنه وأرضاه وعن الصَّحابة أجمعين.

قال رحمه الله :

٦٩ - وفيه معنى قوله صلى الله عليه وسلم : ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا)) أخرجه مسلم. وعن العباس رضي الله عنه مثله.

قال: وفيه معنى قوله صَلَّى الله عليه وسلَّم: ((ذاق طَعْمَ الإِيْمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللّهِ رَبًّا، وبالإِسْلَامِ دِينًا، وبمُحَمَّدٍ صَلَّى الله عليه وسلَّم رَسولًا)) ؛ وهذه الثَّلاث هي أصول الدِّين الذي عليها يقوم ؛ الرِّضا بالله، والرِّضا بدينه، والرِّضا برسوله عليه الصَّلَاة والسَّلَام ، هذه الأصول الثَّلاثة التي يقوم عليها الدِّين، وفيها ألف شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رحمه الله رسالته العظيمة «الأصول الثَّلاثة» بناها على هذه الأصول العظيمة، وعن هذه الأصول يُسأل كلُّ إنسان إذا أُدرِجَ في قبره «مَنْ رَبُّكَ؟ وما دينك؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟»، ومطلوبٌ من المسلم أن يستذكر هذه الأصول استذكاريًّا مستمرًّا يوميًّا استذكاريًّا متكرَّرًا، ومن ذلكم : عند سماع الأذان بعد أن يقول المؤدِّن: «أشهد أن

لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله» يُشَرِّعُ لك أن تقول: رضيتُ بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلّم رسولاً.

والرّضى بالله ربّاً: هو رضا به سبحانه ، وبأسمائه الحسنى وبصفاته، وبحكمه، وعدله، وبقضائه سبحانه وتعالى وقدره، والإيمان بأنّه عزّ وجلّ رحيمٌ غفورٌ كريمٌ حكّم قسطنّ جلّ في علاه .

«الرّضا بالله» والرّضا بالله تعلّقهُ بالأسماء والصفّات، والرّضا عن الله تعلّقهُ بالجزاء، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨] هذا متعلق بالتّواب والجزاء، وهو ثمرة الرّضا بالله الرّضا عنه سبحانه.

والرّضى بالإسلام ديناً: وقد قال الله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ، بأن يُقبَل العبدُ على هذا الدّين ولا يبغي ديناً سواه ﴿وَمَنْ يُبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] .
والرّضى بمحمدٍ صلى الله عليه وسلّم رسولاً: بالإيمان بأنّه مُرْسَل من ربّ العالمين وأنّه بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة ونصح الأُمّة، وأن يُطيعه فيما أمر، وأن يصدّقَه فيما أخبر، وأن ينتهي عمّا نهى عنه وزجر، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال رحمه الله تعالى :

باب السُّخْط

وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [البقرة: ١٧٧] . قال علقمة رحمه الله: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنّها من عند الله فيرضى بها ويسلّم».

قال: «باب السُّخْط»؛ والسُّخْط: يتعلّق بالمصيبة والابتلاء ، والسُّخْط هو ضدّ الرّضا، وينشأ السُّخْط من عدم الإيمان بقدر الله وقضائه سبحانه وتعالى ، فمن لا يؤمن بالقدر إذا حلّ البلاء ونزلت المصيبة ووقعت الشّدّة ووجدَ عنده السُّخْطُ وعدم الرّضا.

أورد قول الله عز وجل : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ ؛ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: لا يقع شيء من المصائب من فقر أو موت أو مرض أو غير ذلك من أنواع المصائب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] ، هذه كلّها أمور بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ يَهْدِي قَلْبَهُ عِنْدَ الْمَصَابِ فَيَنْشُرُ الصَّدْرَ ، وَتَرْتَاحُ النَّفْسُ ، وَيَتَحَقَّقُ الْإِيمَانُ بِقَضَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدْرُهُ ، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ ؛ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ: أَنَّ الْأُمُورَ بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ.

قال علقمة بن قيس النخعي رحمه الله في بيان معنى هذه الآية: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم» هذا معنى قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ أي: أَنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ الصَّادِقَ فِي إِسْلَامِهِ وَإِيمَانِهِ تَصِيبُهُ الْمَصِيبَةُ مِنْ مَوْتٍ قَرِيبٍ أَوْ مِثْلًا فَقَدْ مَحْبُوبٍ أَوْ مِثْلًا حَصُولَ فَقْرٍ أَوْ حَصُولَ مَرَضٍ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَصِيبَاتِ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَي: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي كَتَبَ ذَلِكَ وَقَضَاهُ وَقَدَرَهُ، وَأَنَّ هَذَا الَّذِي حَصَلَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ؛ لِأَنَّهُ شَيْءٌ مُقَدَّرٌ ، شَيْءٌ مَكْتُوبٌ كَتَبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. قال: «فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى» أَي: يَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ وَبِمَا قَدَرَهُ وَقَضَاهُ «وَيَسْلِمُ» لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، لَا يَتَسَخَّطُ وَلَا يَعْتَرِضُ وَلَا يَجْزَعُ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((لَيْسَ مَنَا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَوَى الْجَاهِلِيَّةِ)).

قال رحمه الله :

٧٠ - وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخَطَ فَعَلَيْهِ السَّخَطُ)) رواه الترمذي وحسنه.

قال: وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ)) ؛ وهذا فيه: أَنَّ الْإِبْتِلَاءَ فِي حَقِّ الرَّجُلِ الصَّالِحِ الْمُسْتَقِيمِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَابٌ عَظِيمٌ جَدًّا مِنْ أَبْوَابِ رَفْعَةِ الدَّرَجَاتِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّ مِنْ أَبْوَابِ الرَّفْعَةِ وَعُلُوِّ الْمَنَازِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الصَّبْرُ عَلَى الْقَضَاءِ؛ لِأَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْقَضَاءِ وَأَعْلَى مِنْهَا الرِّضَا بِالْقَضَاءِ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ جَدًّا تَأْتِي فِي مُحَاطَةٍ عَظِيمَةٍ وَهُوَ حَصُولُ الْمَصِيبَةِ وَحَصُولُ الْإِبْتِلَاءِ، فَإِذَا تَلَقَّاهَا الْمُسْلِمُ -وَالصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى- إِذَا تَلَقَّى الْمُسْلِمُ الْمَصِيبَةَ بِالصَّبْرِ وَالرِّضَا وَعَدَمُ الْجَزَعِ وَعَدَمُ التَّسَخُّطِ رَاضِيًا بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ وَقَدَرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَهَذَا بَابٌ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ الرَّفْعَةِ وَعُلُوِّ الدَّرَجَاتِ، بَلْ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَنَازِلَ لَا يَبْلُغُهَا أَهْلُهَا إِلَّا بِصَبْرِهِمْ عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ وَرِضَاهُمْ بِمَا قَدَرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَهَذَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْعُلُوِّ وَالرَّفْعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ: ((إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ)) ، وَابْتِلَاؤُهُ لَهُمْ يَقَابِلُهُ مِنْهُمْ بِتَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ وَمَنْ صَبْرَهُمْ عَلَى هَذَا الْقَضَاءِ وَرِضَاهُمْ بِهَذَا الْمُقَدَّرِ فَتَعَلُّو دَرَجَاتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بَلْ إِنَّهُمْ يَجِدُونَ مِنْ لَذَّةِ الصَّبْرِ وَالرِّضَا نَعِيمًا مَعْجَلًا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؛ مِنْ رَاحَةِ الْقَلْبِ، وَهَنَاءَةِ الْبَالِ، وَسَعَادَةِ النَّفْسِ،

وتجده جسمه مثلاً فيه آلام وأتعب وأمور كثيرة لكنّه في غاية السّعادة، ويجد في نفسه سعادةً لا يجدها الأصحاء الأغنياء الأسوياء الذين ليس فيهم أيّ عاهةٍ أو شيء من هذا القليل.

((إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَعَلَيْهِ السُّخْطُ)) ؛ «فَمَنْ رَضِيَ» أي: بما ابتلاه «فله الرّضا» هنا جعل جواب الشرط إعادةً للشرط نفسه، مثل قوله عليه الصّلاة والسّلام : ((فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ)) ، والإعادة ليس تكراراً للمعنى ؛ ((فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ)) عملاً وقصدًا ((فهجرتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ)) ثواباً وأجرًا. فهنا قوله: ((فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا)) أي له الرّضا مثوبةً عند الله وأجرًا عظيمًا عنده سبحانه وتعالى على رضاه بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره.

أيضًا، العكس ((وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)) أو ((فَعَلَيْهِ السُّخْطُ)) وأكثر الروايات: ((فله السُّخْطُ)) أي: سخطه له وزر وعقوبة عند الله سبحانه وتعالى ولا يفيد شيء في معالجة المصاب الذي حصل له ، إلا أنّه يحصل منه العقوبة والوزر ويؤىء بإثم التّسخط وعدم الرّضا بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره.

قال رحمه الله تعالى :

باب القلق والاضطراب

وقول الله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الفتح: ٢٦] ، وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥] ، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ الآية [الفجر: ٢٧-٢٨] .

قال: «بابُ القلق والاضطراب» ؛ القلق والاضطراب هو ضدّ الطّمأنينة والسّكون، ومن إيمان القلب ومن أعمال القلوب المباركة طمأنينة القلب وسكونه ، قد قال الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ مَا يُحْكُمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [الرعد: ٢٨] ، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ [الفتح: ٢٦] ، فالسّكينة والطّمأنينة التي تكون في القلب هي ثمرة من ثمار الإيمان بالله وملازمة ذكره سبحانه وتعالى ، فإذا قويت صلّة العبد بالله وأكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى أثمر ذلك سكينةً وطمأنينة . ضدّ ذلك القلق والاضطراب، وإذا كان السّكون والطّمأنينة ثمرة من ثمار الإيمان وقوّته، فإنّ القلق والاضطراب ثمرة من ثمار ضعف الإيمان ونقصه. إذاً من الأمور المؤثّرة على دين المرء أن يكون بهذا الوصف؛ القلق والاضطراب الذي هو ضدّ السّكينة والطّمأنينة.

قال: وقول الله تعالى ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦] ؛ والسَّكِينَةُ هذه منزلة عظيمة من منازل السَّائِرِينَ، ويُنْظَرُ كَلَامًا جَمِيلًا لِلْغَايَةِ عَنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ فِي كِتَابِ «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» لِلْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، هَذِهِ السَّكِينَةُ الَّتِي يُنْزِلُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ هِيَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ صَدَقِ الْعَبْدُ مَعَ اللَّهِ، وَحُسْنِ إِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ، وَقُوَّةِ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَهَذَا يُثْمَرُ فِي الْعَبْدِ أَنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَيْهِ بِنَزُولِ السَّكِينَةِ عَلَى قَلْبِهِ، وَالسَّكِينَةُ هِيَ طَمَآنِينَةُ الْقَلْبِ وَرَاحَتُهُ، وَانْتِفَاءُ الْقَلْقِ وَالْاضْطِرَابِ عَنْهُ.

قال: وقوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَ شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ؛ وَهَذَا الْإِيمَانُ الَّذِي بِهَذَا الْوَصْفِ، وَتَحْكِيمِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْخُصُومَاتِ دُونَ أَنْ يَوْجِدَ حَرَجًا -أَي: تَرَدُّدًا وَاضْطِرَابًا وَقَلْقًا فِي الصَّدْرِ- وَيُسَلِّمَ تَسْلِيمًا هَذَا مِنْ أَمَارَاتِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ وَثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَرَاتِ قُوَّةِ إِيْمَانِهِ . أَمَّا إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ إِذَا جَاءَتْهُ الْأَقْضِيَّةُ وَالْأَحْكَامُ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَصِيبُ قَلْبَهُ شَيْءٌ مِنَ الْقَلْقِ وَالْاضْطِرَابِ وَعَدَمِ ارْتِيَاحٍ فَهَذَا مِنْ ضَعْفِ إِيْمَانِهِ. فَإِذَا هَذَا يُعَدُّ آفَةً مِنْ آفَاتِ الْقُلُوبِ وَمَرَضٍ مِنْ أَمْرَاضِهَا.

قال: وقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ: هِيَ النَّفْسُ الَّتِي زَالَ عَنْهَا الْقَلْقُ وَالْاضْطِرَابُ، فَأَصْبَحَتْ مَنْشُرَةً وَمُطْمَئِنَّةً، وَرَاضِيَةً عَنِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ، وَمُقْبِلَةً عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿[الفجر: ٢٧-٣٠] .

قال رحمه الله :

٧١ - ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)).

قال: ولهما -أي البخاري ومسلم- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)) ؛ ليس الشديد بالصرعة: الذي يصرع النَّاسَ وَيُغْلِبُهُمْ وَيُبَادِرُ إِلَى الْمَشَادَّةِ وَالْخُصُومَةِ وَالتَّقَاتِلِ، لَيْسَ هَذَا هُوَ الشَّدِيدُ ، وَإِنْ كَانَ السَّائِدُ فِي أَفْهَامِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الْقَوِيَّ الشَّدِيدُ هُوَ الَّذِي يَهْجُمُ وَيَقَاتِلُ، يَعْتَبِرُونَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ هُوَ الْقَوِي ، فيقول عليه الصَّلَاةُ

والسَّلام: ((ليس الشَّدِيد بالضَّرْعَة)) هذه تعتبر شِدَّة الَّتِي هِيَ الْقِتَالُ، لكن ليس هذا هو الشَّدِيد في مفهوم الشَّرْع، أمَّا في مفهوم النَّاسِ هذا يُعَدُّ شِدَّةً ، ويعتبرون مَنْ كان كذلك هو الشَّدِيد.

قال: ((وإنَّما الشَّدِيد الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)) وهذه هِيَ الشِدَّة الَّتِي تُحَمَّدُ ، وَكُونَ الْإِنْسَانُ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ هَذَا فَرَعٌ مِنْ عَدَمِ قَلْقِهِ وَاضْطِرَابِهِ، هَذَا نَاشِئٌ مِنْ طَمَآنِينَةِ نَفْسِهِ وَسُكُونِ قَلْبِهِ ، بَيْنَمَا الْقَلْبُ الْمُضْطَرَبُ هُوَ الَّذِي يَنْدَفِعُ عِنْدَ أَدْنَى شَيْءٍ إِلَى الْخُصُومَةِ وَالْمُقَاتَلَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ، وَلِهَذَا مِثْلُ هَذِهِ الْقَلْقُ وَالْاضْطِرَابُ وَالسَّرْعَةُ فِي الْقِتَالِ الْمُقَاتَلَةِ وَالتَّقَاتِلِ مَعَ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ وَرَفْعِ الصَّوْتِ بِاللَّجَجِ وَالْخُصُومَةِ وَالشَّتْمِ وَاللَّعْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، هَذَا كُلُّهُ مِنْ ثَمَارِ الْقَلْقِ وَالْاضْطِرَابِ وَعَدَمِ السُّكُونِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، لَكِنْ الْإِنْسَانُ الْمُطْمَئِنَّةُ نَفْسُهُ لَا يَبَادِرُ إِلَى هَذِهِ الْأُمُورِ إِطْلَاقًا، بَلْ سَكُونَةُ نَفْسِهِ وَطَمَأْنِينَتُهَا تَمْنَعُهُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ ، قَالَ: ((إنَّما الشَّدِيد الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)).

قال رحمه الله:

٧٢ - وللبخاري أنَّ رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم أوصني قال: ((لا تغضب)) فردد مراراً قال: ((لا تغضب)).

وهذا الحديث وهو في صحيح البخاري أنَّ رجلاً قال للنبي عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أوصني قال: ((لا تغضب)) فردد مراراً قال: ((لا تغضب)) وجاء في بعض الروايات في غير الصحيح أنَّ الرجل قال: «فتفكرت في الغضب، فإذا هو جماع الشر» ؛ وهذا يُستفاد منه: أنَّ هذه الوصيَّة تُعَدُّ فِي جَمَاعِ الْوَصَايَا ، أَي: الْوَصَايَا الْجَامِعَةِ. مِنْ الْوَصَايَا الْجَامِعَةِ: الْحَثُّ عَلَى تَرْكِ الْغَضَبِ، وَالتَّبَيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَهُ هَذَا الرَّجُلُ قَالَ: «أوصني» قال: ((لا تغضب)) ، قال: «أوصني» قال: ((لا تغضب)) ، يردد عليه تحذيره مِنْ الْغَضَبِ ؛ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ بِتَرْكِ الْغَضَبِ مِنْ جَمَاعِ الْوَصَايَا ، وَأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُقِّقَ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ وُقِّقَ لْخَيْرٍ عَظِيمٍ ؛ لِأَنَّ الْغَضَبَ هَلَاكٌ لِلْإِنْسَانِ ؛ بِالْغَضَبِ أُرِيقَتْ دِمَاءٌ مُحَرَّمَةٌ ، بِالْغَضَبِ تَفَكَّكَتْ أَسْرٌ، بِالْغَضَبِ اعْتُدِيَ عَلَى أَرْوَاحٍ ، بِالْغَضَبِ حَصَلَتْ فُرْقَةٌ وَخُصُومَاتٌ وَاسْتَمَرَّتْ ، يَتَرْتَّبُ عَلَى الْغَضَبِ مِنَ الشَّرِّ وَالْآفَاتِ وَالْأَضْرَارِ شَيْءٌ لَا حَدَّ لَهُ وَلَا حَصْرَ.

فهذه وصيَّة من جماع الوصايا، وهذا دليل على أنَّ العبد إذا وُقِّقَ لِتَرْكِ الْغَضَبِ فَإِنَّ هَذَا مِنْ كَمَالِ أَدَبِهِ وَحَسَنِ خُلُقِهِ؛ وَلِهَذَا عُدَّ هَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْجَامِعَةِ فِي بَابِ الْأَدَابِ ، بَلْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَهُوَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ الْقَيَّرَوَانِي وَنَقَلَهُ عَنْهُ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحُكْمِ: «أَنَّ جَمَاعَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْأَدَابِ تَرْجِعُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَحَادِيثَ» بِمَعْنَى : أَنَّ الْأَدَبَ كُلَّهُ يَجْتَمِعُ فِي أَرْبَعَةِ أَحَادِيثَ، إِذَا وُقِّقَتْ لِتَحْقِيقِ هَذِهِ

الأحاديث الأربعة فقد جُمِعَتْ لك الأدب كلّهُ ؛ هذا الحديث ((لا تغضب)) ، وحديث: ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ))، وحديث: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ))، والحديث الرابع : ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)) ، وسبق أن أَلْقَيْت محاضرة أو كلمة حول هذه الأحاديث الأربعة وبيان وجه كون هذه الأحاديث جمعت الأدب كلّهُ.

وقوله: ((لا تغضب)) هذا يتضمّن أمرين:

● الأول: أن تحاول ألا يوجد الغضب ؛ بالتّحلّي بالأخلاق والآداب والفضائل التي إن وُجِدَ ما يستثير الغضب تكون رَدءًا لك في عدم حصول الغضب.

● ويتضمّن أيضًا: دفع ما يحركه الغضب في الإنسان عند وجود الغضب ؛ من مثلاً كلام لا يُحْمَد ، أو مثلاً اعتداء، أو غير ذلك ، يدخل تحت قوله: ((لا تغضب)) أيضًا تجنّب ذلك. ولهذا صحّ في الحديث أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ)) ، وفي الحديث الآخر: ((إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ سَكَنَ غَضَبُهُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ)) ؛ وهذا فيه فائدة عظيمة في تحقيق قوله: ((لا تغضب)) إن وُجِدَ الغضب عند الإنسان فليدفعه بأمرين:

١ - يمنع الكلام وقت الغضب ، إطلاقًا لا يتكلّم بأي كلمة.

٢ - وأيضًا: يمنع الحركة، لا يباشر بيده أيّ شيء، وإذا وجد جسمه يندفع لفعل شيء يجلس، وإذا حصل سكون في الغضب وإلا يضطجع، مع أَنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِيهِ ويقول له: هذا الآن يفعل ويفعل، وأنت تنام عنده! أين الرُّجولة؟ الآن هو يُغْضِبُكَ وكذا وأنت تنام! أين وأين؟ ما يتركه الشيطان.

٣ - ولهذا يحتاج إلى أمر ثالث: وهو التَّعَوُّذُ عند الغضب من الشَّيْطَانِ؛ لأنَّ الشَّيْطَانَ يحضر للإنسان عند غضبه، قد قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: ((إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)) . فهذه الأمور إذا وُجِدَتْ من العبد زال عنه بإذن الله تبارك وتعالى غضبه.

سؤال : هل يستحب الوضوء عند الغضب؟

ما ورد، الوضوء عند الغضب جاء فيه حديث لم يثبت، لكن كَوْن الإنسان مثلاً اشتدّ عنده الغضب وراح توضّأ ومثلاً صلّى وفرغ إلى الصَّلَاة؛ ليطمئنّ ولجأ إلى الله لا بأس به.

قال رحمه الله تعالى :

٧٣ - وعن أبي ذرّ رضي الله عنه مرفوعًا: ((قد أفلح من أخلص الله قلبه للإيمان وجعل قلبه سليمًا، ولسانه صادقًا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة، فأما الأذن فقمع، وأما العين فمغبرة لما يوعي القلب، وقد أفلح من جعل الله قلبه واعيًا)) رواه أحمد.

قال رحمه الله تعالى: عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ)) ؛ قد أفلح: أي تحقّق فلاحه، مثل ما قال الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون : ١] ، قد أفلح: أي تحقّق فلاحه، والفلاح هو: حيازة الخير في الدنيا والآخرة، وقد قيل: إنّ أجمع كلمة في حيازة الخير في الدنيا والآخرة هي كلمة الفلاح.

((قد أفلح)) أي: تحقّق فلاحه ((من أخلص الله قلبه للإيمان)) أي: وقّعه الله ومنّ عليه بأن جعل قلبه خالص للإيمان صافي نقي للإيمان، امتلاً إيماناً.

((وجعل قلبه سليماً)) أي: سليماً من أمراض القلوب، وهي على نوعين: شهوات، وشبهات.

((ولسانه صادقاً)) أي: لا يتكلّم إلاّ بالحقّ والخير ، وفي الدّعاء المأثور وقد صحّ عن النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام: «اللهمّ إني أسألك قلباً سليماً، ولساناً صادقاً» ، وهذان - أعني القلب واللسان - هما أميرا البدن ، فإنّ ((المرء بأصغريه: قلبه ولسانه)) ، المرء ليس بهيكله وجسمه ويده ، ((المرء بأصغريه: قلبه ولسانه)) ، بمعنى: أنّ القلب إذا صلح صلحت الأعضاء كلّها تبعاً له، كما قال عليه الصّلاة والسّلام: ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)). . واللسان إذا صلح أيضاً صلح البدن كلّهُ ، كما جاء في الحديث وقد مرّ معنا: ((إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ ؛ فَتَقُولُ : اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمَّتْنَا وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا)). .

((ونفسه مطمئنة)) وهذا هو موضع الشاهد ، «ونفسه مطمئنة»: أي جعل نفسه مطمئنة، ووجود الطمأنينة في النّفس يعني انتفاء القلق وزوال الرّيب والاضطراب، «وجعل نفسه مطمئنة» وقد تقدّم معنا قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧] .

((وخليقته مستقيمة)) أي: مستقيمة على طاعة الله سبحانه وتعالى والبعد عن أبواب الانحراف.

((وجعل أذنه مستمعة)) أي: مستمعة للحقّ، وإذا سمعت الحقّ أقبلت عليه ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] .

((وعينه ناظرة)) أي: نظر تفكّر واعتبار في آيات الله سبحانه وتعالى ومخلوقاته العظام.

((فأما الأذن فقمع، وأما العين فمعبرة لما يُوعى القلب)) أي لما يجمع القلب ولما يحفظ القلب .

«الأذن قمع» أي: منفذ ومعبّر لما يدخل إلى القلب ، وسبق أن مرّ معنا ((وَيْلٌ لِلْأَقْمَاعِ)) ، فالأذن قمع أي: منفذ ، والقمع: هو الذي أعلاه واسع وأسفله ضيّق ويصّب فيه ما يُصَبّ من زيت حتى يُدخَل في القربة أو في الوعاء أو نحوه ، فالأذن قمع: أي منفذ لما يدخل في القلب.

«والعين معبرة» معبرة: بمعنى قِمع . القِمع هو معبر، القِمع معروف أو ليس معروف؟ الذي يُقال في الدّارجة «مُخَقَّن» يعني: إذا أراد الإنسان أن يَصُبَّ مثلاً زيتاً أو سمنًا أو عسلًا في قربة أو مثلاً في وعاء فمه ضيق يأتي بالقِمع ويجعل فتحته الصّغيرة في الوعاء، وفتحته الواسعة يصبّ فيها ما شاء أن يصبّه . فالقِمع معبرة يعبر منها إلى الوعاء.

فإذاً ((الأذن قِمع، والعين معبرة)) ؛ والأذن قِمع أيضاً شبيهة بالقِمع في شكلها؛ لأنّ الأذن فتحته واسعة، والمنفذ الذي يدخل منه الصوت ضيق.

((الأذن قِمع والعين معبرة لما يوعي القلب)) ؛ إذاً ماذا نستفيد من هذا؛ إذا عرفنا أنّ الأذن والعين كلاهما معبران للقلب؟ معنى ذلك: أنّ مَنْ أراد صيانة قلبه من الأمراض والشبهات والأهواء وغير ذلك عليه أن يسدّ المنفذين: الأذن والعين، لا يُدخل منهما ؛ لأنّ النّظر المحرّم يدخل للقلب ماذا؟ ما يمرضه ، والسماع المحرّم يدخل للقلب ما يمرضه ، رأيتم لو أنّ شخصاً أتاح لعينه النّظر المحرّم ، وأتاح لسمعه السماع المحرّم ، ويريد أن يبقى قلبه سليماً من الشبهات وسليماً من الأهواء أمممكن؟! هذا يكون كما قال القائل:

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له إياك إياك أنت تبتلّ بالماء

يسمع المحرّمات ويشاهد المحرّمات ويقول: أنا أريد أن يبقى قلبي سليماً!! فإذاً هذه فائدة مهمّة: ((الأذن قِمع، والعين معبرة لما يوعي القلب)) أي: لما يجمعه القلب . وسبق أن مرّ معنا في الحديث: ((ويلٌ للأقماع)) يعني: الذي أذنه مفتوحة وتسمع ، لكن ما يدخل فيها ينفذ، لا يصل إلى القلب لعدم إقبال القلب على الخير . قال: ((وقد أفلح مَنْ جعل الله قلبه واعياً)) أي: واعياً للخير والإيمان والحقّ والهدى، فالأذن مُقبلة على ذلك، والذي يصل إلى القلب هو ذلك ، ويعي ما يصل إليه من الحقّ والخير يعيه ويحتفظ به ويتنفع به ، وفي الحديث: ((نَضَرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها، فَأَذَاهَا كَمَا سَمِعَهَا))، فوعاها: أي أنّ القلب يعي ما يصل إليه من الخير ويعمل على حفظه والمحافظة عليه والثبات عليه.

وهذا رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده عن أبي ذرّ، وفي إسناده انقطاع بين أبي ذرّ والزّراوي عنه رضي الله عنه وعن الصّحابة أجمعين.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.